تعليقان

للدكتور إحسان عباس
عضو مؤازر في المجمع

- ١ -

أتيح لي أن أطلع على أعداد من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، بعد أن وصلتني متأخرة عن تاريخ صدورها، فاستوقفني في العدد المزدوج ١١ ـ ١٢ (كانون الثاني ـ حزيران ١٩٨١) بحث بعنوان «رأي في تحديد عصر الراغب الاصفهاني» للدكتور عمر عبدالرحمن الساريسي (ص٤٣-٧٦) وقد انتهى الباحث في دراسته الى أنّ أبا القاسم الراغب الأصفهاني كان في الأرجح معاصراً للصاحب بن عباد، ثم من بعده للوزير أبي العباس أحمد بن ابراهيم الضبي المتوفى عام ٣٩٩، أي أنه من رجال القرن الرابع وربما أدرك أوائل القرن الخامس، وأن المصادر التي جعلت وفاته سنة ٥٠٢ أو ٥٦٥ قد وقعت في الخطأ. وقد حشد الباحث كثيراً من الأدلة المرجحة على تفاوتها بعداً وقرباً ليصل الى هذه النتيجة.

ولست في هذا المقام أناقش ما أورده من أدلّة ولكني أحاول أن أضيف اليها ما لعله ينقل أمر الترجيح حول عصر الراغب إلى ما يشبه الحسم، معتمداً في ذلك على كتاب محاضرات الأدباء.

١ ـ ورد في محاضرات الراغب (١ : ١١٩ ط. دار الحياة، بيروت)* ما يلي : « أبو القاسم قال: كتبت إلى أبي القاسم بن أبي العلاء أبياتاً أستعير منه شعر عمران

* رقم (١) يعني الجزءين الأول والثاني وهما متتابعا الترقيم ورقم (٢) يعني الجزءين الثالث والرابع.

بن حطان، وضمنتها أبياتاً لبعض من امتنع من إعارة الكتب إلا بالرهن، وأبياتاً عارضها بها أبو علي بن أبي العلاء» ثم أورد الأبيات وعلّق على ذلك بقوله (١ : ١٢٠) «والغرض في ذلك ما قاله ابو القاسم (اي ابن أبي العلاء) لا ما خاطبته به، أعوذ بالله أن أكون ممن يزري بعقله بتضمين مصنّفات شعر نفسه».

فأبو القاسم المذكور في أول الرواية هو الراغب الأصفهاني نفسه، وهو يصرّح أنه يكتب الى أبي القاسم بن أبي العلاء، أي هو معاصر له، ولدى البحث عن ترجمة أبي القاسم بن أبي العلاء وجدت أنه من رجال الصاحب بن عباد، فقد كان بين الشعراء الذين وصفوا داراً للصاحب بناها باصبهان وأنشده قصيدة منها (اليتيمة ٣ : ٢٤٣).

دار تمكنت المباهج فيها نطقت سعود العالمين بفيها

وله قصيدة في برذون أبي عيسى المنجم الذي نفق باصبهان، ونظم الشعراء فيه مراثي كثيرة باقتراح من الصاحب نفسه (اليتيمة ٣ : ٢٢١) وقد ترجم له الثعالبي في اليتيمة (٣ : ٣٢٤ ـ ٣٢٥) فذكر ان اسمه «غانم» وقال فيه : «شاعر ملء ثوبه، محسن ملء فمه، مرغوب في ديباجة كلامه، متنافسٌ في سحر شعره، ولم يقع إلّي ديوانه بعد، وإنّما حصلتُ من أفواه الرواة على قطرة من سيح غُرَره، وغيضٍ من فيض ملحه . . .» فاذا عرفنا أن أبا القاسم هو ابن ابي علي (كما صرّح بذلك الراغب نفسه في المحاضرات ٢ : ٥٧٩) كان هذا الرجل هو غانم بن أبي علي بن أبي العلاء الأصفهاني، وقد كان حياً بعد وفاة الصاحب سنة ٣٨٥ لان له قصيدة في رثاء الصاحب (اليتيمة ٣ : ٢٨٤). وقد اهتمّ الراغب بأبي القاسم وأبيه في محاضراته فأورد لهما بعض الأشعار (انظر: ٢ ٣٠٢، ٣٩٦، ٦٢٦، ٢ : ٥٢٧، ٥٧١، ٥٧٩ فالنص الذي ورد في المحاضرات يوضح الأمور التالية :

(أ) ان الراغب عاصر أبا القاسم بن أبي العلاء وأباه، أي عاش في عصر

الصاحب بن عباد قطعاً لا ترجيحاً، وقد عرف البيئة الاصبهانية معرفة دقيقة، كما يؤكد ذلك رواياته عن شؤون اصبهانية لا يعرفها إلا من كان له اهتمام خاص بتلك البيئة، وعرف كثيراً من رجالات اصبهان وشعرائها وأورد بعض اشعارهم وأخبارهم في محاضراته (راجع قصصاً عن اصبهان في المحاضرات ٢: ٤٤٨-٤٤٩، ١: ٣٥٢، ٤١٩).

(ب) أنه كان مهتمًا بديوان عمران بن حطان، ولا نحسب أن يصدر مثل هذا الاهتمام عن رجل شيعي.

(جـ) أن الراغب كان ينظم شعراً، ولكنه التزم بأن لا يذكر شيئاً من شعره في مؤلفاته.

٢ ـ يؤكد الراغب معاصرته لأبي القاسم بن أبي العلاء في موطن آخر من محاضراته (١: ٨٦) إذ يقول: «أنشد أبو القاسم بن أبي العلاء يوماً شعراً كاتَبَ به رئيساً، **وكنا سمعناه منه قبل**، فعوتب في ذلك فقال: أنا نظمته أقلّد به من أشاء».

٣ ـ يروي الراغب على نحو مباشر عن أبي الفرج الكوفي فيقول (محاضرات ٢: ٤٩٩) حكى أبو الفرج الكوفي قال: حضرتُ مجلسَ الصاحب وعنده علوي شاميّ يحدثه بما شاهده من الاعاجيب... الخ».

فهذا معاصرآخر للصاحب يروي عنه الراغب، والمكنّون بأبي الفرج كثيرون، منهم هذا الكوفي، وأبو الفرج الساوي (اليتيمة ٣: ٣٧٧) وأبو الفرج ابن هندو (اليتيمة ٣: ٣٩٧ وابن أبي أصيبعة ١: ٣٢٣) وأبو الفرج الكاتب حمد بن محمد وهو اصبهاني، وكان مكيناً عند ركن الدولة البويهي،وكان أبو الفضل

ابن العميد لا يوفيه حقه (أخلاق الوزيرين): ٤٢١) وأبو الفرج البغدادي الصوفي (أخلاق الوزيرين: ٢٧٩).

٤ ـ ويقول الراغب في محاضراته أيضاً (١: ٧٠٦) «وحدثني أبو سعيد بن مرداس أنه قعد مع جماعة فيهم ابن بابك تحت عريش كرم يشربون فأصابهم مطر فقال ابن بابك. . .» ولم أهتد إلى ما يوضح مكانة أبي سعيد ابن مرداس وشهرته، ولكنه على أية حال عاصر عبدالصمد بن بابك الشاعر (المتوفى سنة ٤١٠) وابن بابك من الوافدين على الصاحب وله فيه مدائح كثيرة.

٥ ـ وجاء في المحاضرات (١: ٤٣٣) «كتب علي بن القاسم رحمه الله: بلغني عن حال رمدٍ عرض له ما أرمد خاطري، وأظلم ناظري، وأذهلني عن كل مهمّ، وخفف في عيني وقلبي كلَّ ملم». هذا الترحم على علي بن القاسم لم يجيء عفواً، وإنّما هو يدل على معرفة أو صداقة بين الراغب وهذا الكاتب، وقد كان عليّ بن القاسم الكاتب معاصراً للتوحيدي أي معاصراً للراغب الأصبهاني والصاحب، وكانت ذكراه ما تزال حيّةً لدى تأليفِ محاضرات الأدباء (انظر أخلاق الوزيرين: ١٢٤ والصداقة والصديق: ١٧٧ ط. دمشق، والامتاع والمؤانسة ١: ٦١).

٦ ـ لا مجال للشك في أنّ «الأستاذ الرئيس» هو أبو العباس الضبي، فقد ذكره الراغب بلقبه فقط (أي الأستاذ الرئيس) دون ذكر اسمه في محاضراته (٢: ٦٤) واورد له البيتين التاليين:

لا تركننَّ الى السوداع وان سكنتَ إلى العناقِ
فالشمسُ عند غروبها تصفرُّ من خوف الفراقِ

وقد أورد الثعالبي هذين البيتين في اليتيمة (٣: ٢٩٥) لأبي العباس أحمد

بن إبـراهيم الضبي. وذكـر ياقوت في معجم الأدباء (٢ : ١٠٥) أن «الكافي الأوحد» من ألقاب الضبي، ونقل ذلك الدكتور الساريسي عنه، وبهذا اللقب أي «الوزير الرئيس الكافي الأوحد» ذكره الراغب في المحاضرات (١ : ٤٣٥) وأورد له أبياتاً في وصف نزلةٍ أصابته، ولم ترد هذه الأبيات في اليتيمة. وَذِكْرُ الضبيِّ على هذا النحو يقرر حقيقة الصلة ـ والمعاصرة ـ بينه وبين الراغب الأصفهاني.

وفي المحـاضرات أيضـاً نصـوص تلقي بعض الضـوء على شخصية الراغب، فمن ذلك:

١ ـ وقلت لبعض المتصـوفـة إنك لوطي فقال: , ما تقول في لصٍّ لا يسرق، هل يلزمه القطع؟ (١ : ٢٢٧).

٢ ـ أورد (١ : ٦٢٩) قصـةً عن فرقد السبخيّ والحسن البصري حين اجتمعا على مائدة وأبى فرقد أن يأكل الخبيص خوفاً من أن لا يؤدي شكر الله تعالى عليه فقال له الحسن: كُلْ فلنعمةُ الله عليك في الماءِ البارد أعظم منها في الخبيص.

وعلق المؤلف على القصة بقوله: قال الشيخ أبو القاسم رحمه الله: فانظر الى فقه الحسن وفهمه وإلى ضعف رأي فرقد مع إسلامه، واعتبر بهما قولَ النبيّ ﷺ: فضلُ العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة، ولفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابد.

٣ ـ وذكر القصة التالية (٢ : ٤٠٦) قال عمر بن عبيد الله لرجل: عظني، فقال: قد قطعتَ عامَّةَ سفرك فان استطعتَ أن لا تضلَّ في آخره فافعل.

وكان تعليقه عليها: قال المؤلف: وأنا أقول قد ضللتُ عامة سفري، فان

لم يهدني الله فويلٌ لي، ختم الله لي بخيرٍ ولمن كتب وقرأ.

ترى هل هذا التعليق يفيد أن مصنفاته الأدبية كتبت في أوائل عمره كما يوحي بذلك حديث الدكتور الساريسي (مجلة المجمع: ٥٧) أو هو يدل على عكس ذلك، إلا أن يكون قد ردَّدَ النظر في بعض مؤلفاته المبكرة، حين أصبح في سنٍّ عالية، فأضاف مثل هذه العبارة.

٤ ـ وقال بعد أن أورد عدداً من التمنيات (١: ٤٥٦): نسأل الله أن يعطينا مُنانا بعد أن يوفقنا لتمنّي ما فيه مصالحنا.

بقي أن أقول إن التدقيق في محاضرات الراغب يؤكد كثيراً من النتائج التي وصل إليها الدكتور الساريسي مثل إعجاب الراغب بالمتنبي ومعرفته قصصاً دقيقة عن الصاحب لم يلمّ بها أبو حيان أو الثعالبي، وايراده أشعاراً كثيرة للصاحب قد توازي ما أورده للمتنبي، كما أنه يذكر كتاباً اسمه «الأحداق» (٢: ٥٣٣) ولعلّه ان يكون أحد مؤلفاته.

أمّا لماذا تجاهلته كتب التراجم (ما عدا البيهقي في تاريخ الحكماء والسيوطي في بغية الوعاة) فكلّ التعليلات التي أوردها الباحث لا تثبت للمناقشة، وأرى أن الأمر ليس من قبيل التجاهل (والا فكيف وصل ذكره إلى البيهقي؟). لا بد أن تكون هنالك مصادر سابقة للبيهقي قد عرّفت به ولكنها لم تصلنا، ولعلّ لزومه لاصفهان وعدم مبارحتها ـ فيما أقدر ـ قد جعله بعيداً عن «دائرة الضوء»، ولهذا السبب نفسه ولأسباب أخرى تقديرية لم يذكره التوحيدي بين من سألهم عن آرائهم في الصاحب. بلى، أُرجِّح أنه ذكره في قوله: «وقلت **للشيخ العالم**: أما أنت من بين الناس فقد حظيتَ عنده ونلتَ منه، فقال: لو عرفتَ ما يتقد على فؤادي من الغيظ عليه لرحمتني في بلائي بأكبر مما تحسدني عليه في ظاهر أمري» (أخلاق الوزيرين: ٣١٦) فهذا «الشيخ العالم» مقرّب من

الصاحب، كما تنطق بذلك حال الراغب، ولكن الراغب نفسه على إعجابه بالصاحب لا يتورّع عن إيراد النادرة وإن كان فيها غمزٌ للصاحب، جاء في المحاضرات (١ : ٣٧٦).

قال العثماني في الصاحب:

وفدنا لنشكر كافي الكفاةِ ونسأله الكفَّ عن برِّنا

فقال العلوي: قد كُفِيتَ فان الصاحب صار لا يعطي شيئاً.

فان لم يكن هذا «الشيخ العالم» هو الراغب الأصبهاني نفسه، فان أبا حيان لم يلقه، لان إقامته عند الصاحب كانت في فترة إقامة الصاحب بالريّ، كما كانت علاقة الراغب بالصاحب وثيقةً يوم كان هذا الثاني باصبهان.

- ٢ -

في العدد السابق نفسه من مجلة المجمع الأردني مراجعة لكتاب «أخبار أبي القاسم الزجاجي» تحقيق الدكتور عبدالحسين مبارك (بغداد: ١٩٨١) والمراجعة بعنوان: «مع تحقيق كتب التراث» (ص٩٢ ـ ١١٥) بقلم صديقنا الدكتور إبراهيم السامرائي، والكتاب موضوع المراجعة كتاب قيم وان كان يلتقي مع «أمالي الزجاجي» في كثير من النصوص، إلا أنه بائس تحقيقاً وطبعاً، ولا يتدارك ما فيه من أخطاء تصويب هنا أو هناك، ولا نُصْحُ الدكتور السامرائي للمحقق بأن يتولى إعادة التحقيق، وأنا أعتقد أن الجهود التي تبذل في تصحيح بعض أخطاء مثل هذا الكتاب تذهب هباءً، وأقول لصديقي الدكتور السامرائي: يبدو أنك تشهر سيفك على أعزل (وليس هذا مقبولاً في شرعة الفروسية).

وقد لفت نظري في المراجعة (ص: ١١٠) بيتان كتبهما إسحاق الموصلي إلى عَريب المأمونية وذكر المحقق أنهما لا يوجدان في ديوان إسحاق، وقال الدكتور السامرائي تعليقاً على ذلك «كأنه لم يعرف أنَّ الديوان هو صنعة حديثة فقد جمع أشعاره أحد المعاصرين» قلت: ولعلّ السرَّ في عدم ورودهما في ديوان الموصلي أنهما ينسبان في معظم المصادر إلى عليّ بن الجهم، وأنا أكتفي بالاشارةِ إليهما في الأغاني (١٠: ٢٢١ ط. دار الثقافة) وروايتهما فيه*:

خَفِـيْ الله في من قد تَبَـلْتِ فؤاده وغـادرتـهِ نضـواً كأنَّ به وقـرا
دعي البخـل لا أسمعْ به منكِ إنما سألتكِ أمراً ليس يعري لكم ظهرا

ويقـول الـدكتور السامرائي (ص: ١١٣) إن هدبة بن الخشرم شاعر جاهلي، وهذا فيما أعتقد غير دقيق. صحيح ان هدبة كان ـ فيما يذكرون ـ راوية الحطيئة، ولكن الحادثة التي أدت إلى مقتله جرت حين كان سعيد بن العاص والياً لمعاوية على المدينة. وفي أخبار هدبة في المصادر المعتمدة ما يؤكد ذلك.

كذلك علّق الدكتور السامرائي على ما ورد في الصفحة ١١٩ من أصل الكتاب (المجلة ص١١١ ـ ١١٢) تعليقاتٍ وفّق في بعضها ولم يوفَّقْ في بعضها الآخـر، ومـا انتـزعـه ليعلّق عليه ليس سوى قليلٍ من كثير من التصحيف والتحريف اللذين أصابا ذلك النّص، وقد ورد الخبر نفسه في التذكرة الحمدونية (عمومية رقم: ٥٣٦٣ الورقة: ٥٩) وأنا أثبته كاملاً ليتضح مدى البون بينه وبين النص الوارد في أخبار الزجاجي وأشرح منه ما يحتاج إلى توضيح:

«ومن الحمية والأَنَفِ ما رواه أبو رياش يسنده إلى رجل من كندة كوفي قال: كنت أُجالسُ شريحاً، وهو قاض لأمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، فاني

* يستطيع القارىء أن يجد القصة والبيتين في العقد ٦: ٧١ والبصائر ١: ٢٢١-٢٢٢ وديوان علي بن الجهم: ١٤٠.

لفي مجلسه ذات يوم إذ أقبل رجل جيدر[1]، صَعْلُ الرأس، ناتىء الجبهة، ثطُّ اللحية[2]، كأنه محراث، ومعه امرأة كالبكرة العيساء[3]، تدير مقلتين نجلاوين كأنّ هدبهما قوادمُ خطاف، ثم أبرزت كفاً كبياض الاغريض[4] وأناملَ كبنات النقا[5]، فقالت: أيها الحاكم هذا بعلي؛ فقال شريح للرجل: أكذاك؟ فكشر بشفتين بثعاوين[6]عن ثنايا ثعل[7] كأنها سناسنُ عَيْر فقال: نعم، فقال شريح للمرأة: وما قِصَّتُكِ؟ قالت: إنه ابن عمي وأنا خولة ابنة مخرمة إحدى نساء بني جرم بن زبّان، وانه خرج بي وغرّبني عن بلادي وقومي وذوي قرابتي، فصرتُ لا أنظر إلا إليه ولا أعوّل إلا عليه، وهو نهمٌ إذا أكل، فَلْحَسٌ[8]إذا سأل، حريصٌ مقفل اليدين بالبَخَل، مُطْلَقُ اللسان بالخَطَل، يأكلُ وحده، وَيُخْلِفُ وعده، ويمنعُ رفده، ويضربُ عبده، فحّاش نجاّش[9]، إن سانيتُ[10] قطّب، وإن راشيت[11] غضب، يصونُ ماله، وَيُهِينُ عياله، فقال شريح: تالله ما رأيتُ كاليوم ذمّاً أشنع، أَحْسِني ملأً[12] أيتها الحرة، فانه بعلك وابن عمك، فجثا الرجل على ركبتيه ثم قال: يا للأفيكة[13] أيها الحاكم:

---

١ الجيدر: القصير.

٢ صعل الرأس: صغير الرأس، ثط اللحية: قليل شعر اللحية.

٣ العيساء: الناقة البيضاء في شقرة.

٤ الاغريض: الطلع إذا انشق عنه وعاؤه.

٥ بنات النقا: دود يشبّه به العرب الأنامل وهي الأساريع.

٦ بثعت الشفة: غلظ لحمها وظهر دمها.

٧ ثعل: متداخلة، نبت واحدها تحت الآخر.

٨ فلحس: كلب، وتريد به شدة الالحاح.

٩ النجاش: الوقاع في الناس.

١٠ سانيت: من المساناة وهي المداراة والملاينة.

١١ راشيت: لاينتُ.

١٢ أحسني ملأً: أحسني عشرة وخلقاً (وفي بعض نسخ التذكرة، أحسني كلاماً).

١٣ الأفيكة: البهتان والكذب.

سائـلْ سراةَ بني جَرْمٍ فانهمُ ... قد ينبئونك بالجالي من الخبر

هل أترك البكرة الكَوْماءَ كائسةً[14] ... إذا تلاعبت النكباءُ بالخطر

للجارِ والضيفِ والمعتّر قد علموا ... في ليلةٍ تُتْبِع الشفَّانَ بالخَصَرِ[15]

وأترك الخصم مصفرّاً أنامله ... دامي المرادغ[16] منكبّاً على العفر

وأنظِرُ الخصمَ ذا العوصاء حجته[17] ... حتى يلجلج بين النعيّ والحصر

وآسألهُمُ هل رَمَوا بي صدرَ معضلةٍ ... فلم أكافح شبا أنيابها البُتُرِ

واسألهمُ كيف ذبّي عن ذمارهمُ ... إذا ترامى استعارُ الحربِ بالشرر

إني لأعْظُمُ في صَدْرِ الكميِّ على ... ما كان فيَّ من التجدير والقصر

حتى يصدَّ لِواذاً عن مبادهتي ... صدَّ الهجارسِ عن ذى اللبدةِ الهصر[18]

تا لله تجمعُ شخصينا ملاءمةً ... من بعد ذا اليومِ في بدوٍ ولا حَضر

فقال شريح : أوضح عن نيتك، عافاك الله، قال: نعم هي طالقٌ ثلاثاً، وهذا السائب بن عمرو فهو ابن أبي أمها[19] يقوم بمؤونتها إلى انقضاءِ عدتها.

---

١٤ الكوماء: الضخمة السنام، كائسة: عقيرة.

١٥ الشفان: الريح الباردة، الخصر: البرد.

١٦ المرادغ: ما بين الترقوة والعنق.

١٧ العوصاء: الغريبة.

١٨ الهجارس: أولاد الثعالب، الهصر: الأسد الذي يهصر كل شيء أي يدقه.

١٩ أخبار الزجاجي: وهذا الشاب (اقرأ: السائب) بن أبان بن أبي وليها.